حُلمٌ في نجدْ

علي الطنطاوي

منشورات مؤسسة
دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام
DAR AL ASSALA FOR CULTURE PUBLISHING AND INFORMATION

حُلمٌ فى نجد

حُلمٌ في نجد

عَليّ الطنطاوي

منشـــورات



الرياض ص.ب ٤٢٢٤٨

الطبعة الأولى

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام

س.ت ٣٩٨٦٤ ص.ب ٤٢٢٤٨ الرياض المملكة العربية السعودية


بسم الله الرحمن الرحيم

إشـــــارة

نجد هذه الرقعة الواسعة التي تتوسط شبه الجزيرة العربية تغنى بها الشعراء العرب الأوائل والمحدثون وأكثروا. حتى لاتجد شاعراً لم يذكرها في شعره. بل لقد ذهب الأمر ببعضهم إلى جعل نجد أماً يبثها آلامه وشجونه. الأمر الذي جعل شعرهم مليئاً بالحنين إلى نجد. حتى إن (صباها) أصبح ملازماً لذكرها. يقول الشاعر (ابن الدمينة) في داليته. والتى هي من أعذب وأمتع ماقيل في نجد.

الا ياصبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادني مسراك وجدًا على وجد

ويقول آخر :

سقى الله نجداً والسلام على نجد
ويا حبذا نجد على القرب والبعد

فالشعر في نجد يذكي الأحاسيس ويطرب النفس بأعذب الألحان. وهذا دليل واضح على التصاق الإنسان بالأرض التي يقطنها وتكون أول ماتكتحل بها عيناه.

وقد سعدت (دار الأصالة) بموافقة أديبنا الكبير وأستاذنا الفاضل (على الطنطاوي) حينما كتبت له الدار

مستأذنة طباعة هذه الإضمامة الأدبية الرائعة (حلم في نجد) فتكرم بالإذن ولم يقتصر على ذلك وإنما شفع الإذن بالترحاب البالغ. على أنه ــ وبتواضع جم ــ ألح على أن هذه لاتشكل شيئاً ذا بال، ولاتستحق افرادها في كتيب.

إلا أن (دار الأصالة) إيماناً منها بما لنجد من مكانة خلدها الشعراء القدامى والمحدثون وما للشيخ الفاضل من مكانة في النفوس لدى العامة والخاصة. وبما يمتاز به أسلوبه الرشيق وبيانه القوي من جمال فني إضافة إلى بلاغته وعمق ثقافته وتشعب إطلاعه.

إيماناً بكل ذلك. تقدم (دار الأصالة) هذه الإضمامة الممتعة. والتي كتبها أديب العربية (علي الطنطاوي) قبل سنوات. ونترك القارىء الكريم الذي عودناه على كل جيد مع أسلوب الطنطاوي في تناول الموضوعات وبيانه الرائع في الاسترسال والذي لايستطيع القارىء أن يغادره حتى يأتي عليه من فرط الأسر البياني الذي يهيمن عليه حين يقرأ مقالات ودراسات وأبحاث الشيخ (الطنطاوي).

مؤسسة دار الأصالة

الرياض

مقدمة المؤلف

ياقوت الحموي ما ألف كتابه (معجم البلدان) حتى طوّف في البلاد، ورأى أقاليم الأرض. ثم يقول: ان مواطن الجمال ثلاثة: غوطة دمشق، وشعب بوّان، ونهر الأبلّة. وهي التي تدعى اليوم بـ(أبو الخصيب) عند البصرة

وقد فتح المسلمون كلها، وسكنوها أو جازوها شعراء العرب، ورأوا بلادا أجمل منها. فهل قالوا في ذلك كله ما قال الشعراء الأولون في جبال نجد، وأودية الحجاز؟

هل كانت تلك القفار أجمل من بساتين إيران، وجنات الأندلس، ألم يكونوا أشعر، وكانوا يحسّون بالجمال أكثر، أم كانوا عن التعبير عنه أقدر؟

ولو أن أديبا تتبع ما قيل في نجد، لجاء معجما كبيرا، وأنا ما عمدت إلى هذا، وما أردته، وما أقدر عليه، وإنما كنت أدوّن ما يمرّ بي من أشعار نجد، فأودعت ما اجتمع لديّ في مدة قصيرة هذه المقالة

أنا حقاً لست كاتباً وُضع للمقدمات، ولكنه أمر صاحب دار المنارة إذ نشرها وحدها، تحية منه، ومني لنجد وأهل نجد، وكلفني أن أكتب كلمة بين يديها.

ووسطني وسيط صديق قديم أحبه، وأديب فاضل أحترمه، هو أخي الأستاذ محمد سعيد العامودي، وهل أملك أن أرد طلباً للأستاذ السعيد؟

فله وللناشر شكري، وللقراء أزكى سلامي

مكة المكرمة: ٧/٧/١٤٠٦ علي الطنطاوي

غدوت أكتب مقالاتي في جلسة واحدة، لاأصبر على الابتداء بتسويدها، ولا على الانتهاء إلى تحريرها. ولكن هذه المقالة شغلتني ليالي وأياماً، أجمع لها الشواهد، وأتألف الشوارد، ففكرت فيمن أهديها اليه، فلم أجد أحق بها منك. لإنك ابن نجد، أبوك الشيخ عبد الله بن حسن قاضي قضاته، تشرفت بلقائه والاقتباس من معينه منذ أكثر من ثلث قرن، وجدك الشيخ محمد بن عبد الوهاب معجزة نجد، ومجدد الإسلام في هذا العصر.

وما كنت يوماً ممن يتزلف إلى وزير، أو يتصاغر أمام كبير، ولكن كنت ممن يقدّر الفضل، ويكبر النبل.

فأنا أهديها إليك لفضلك ونبلك لا لأنك وزير المعارف(١).

ركبت القطار من خمس سنوات، من الرياض إلى الظهران، وكان يطوي بنا الأرض، والذهن يطوي بي

(١) كتبت هذه الإضمامة حينا كان الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ وزيراً للمعارف

العصور، أنظر من وراء البلّور وأنا في مثل نشوة الخمور أقول: هذه نجد؟ فأين صباها وأين صباياها؟

أين الصبا كان يهبّ على قلوب الشعراء، فيذيبها من الحنين شعراً يترع البيد والحضر؟ أين الصبايا اللواتي خلدن في الأدب قصائد لا تفنى وان فني العمر؟

كيف أوحت هذه التلال المقفرة، وهذه الرمال المتسعرة بما لم توح بمثله جنات الشام، وأودية لبنان، حيث الظل والماء، والأيكة الغنّاء. والسواقي تتحدر من القمم المعتمّة بالثلج، تتكسر تحت عين الشمس، كأن في كل ساقية مئة ألف حجر من غالي الالماس(١)، ثم تخطر على السفوح الكاسية بأثواب الزهر، العابقة بريّا العطر؟

كيف كسوا تلك الصحاري من أدبهم ثوب الخلود، وقالوا فيها مالم نقل مثله وعندنا هذي الجنّات.

ألأن القوم كانوا أمة البيان، كانت لهم عيون تتبع الحسن، وقلوب تهيم بالجمال، وألسنة تصف ماترى العيون وتحس القلوب، فما لشعرائنا في هذا الزمان.؟!

(١) مفرد الالماس ولامة أصلية فهو الألماس لا الماس.

وجعلت أعرض في ذهني ماقيل من الشعر في نجد، و ياما أكثر ماقيل في نجد من الشعر، وسبقت إلى ذاكرتي أبيات للشاعر الأموي، المتنبي الصغير، (الابيوردي) وكنت قد أولعت بديوانه حيناً، وكتبت عنه في (الرسالة) من أربع وثلاثين سنة، فشعرت به يتمثل لي، فكأني أراه قاعداً أمامي في القطار. ومعه صاحبان له، وكانوا يتهامسون وكأنه يحدثهما عن سوالف أيامه في نجد، ثم رأيته يبكي و يدعوهما أن يبكيا معه أيام نجد، لأنه لم يجد بعد نجد مثل نجد.

يسألهما أيعينان هذا القلب المعمود، على بكاء تلك العهود، أم ينسيان الود، و ينقضان العهد؟

و يدعو عليهما إن هما لم يفيا ــ لا بالموت، بل بما هو شر من الموت، وهو ألا تبصر عيونهما علمي نجد، ولا ترعى ركائبهما حماه:

هلم نبك على نجد وساكنه
فلن نرى بعد نجد عيشة رغدا

ودع هذيماً،فقد طاف السلوبه
وعن قريب نراه يلتوى كمدا

أتخذلان فؤاداً شيّقاً علقت
به الصبابة إن أتهمتما حسدا

أم تنقضان عهوداً كنت أبرمها
إن تنقضاها فلا لقيتما رشدا

ولا رأت علمي نجد عيونكما
ولا رعى بالحمى نضواكما أبدا

فرأيتها يبكيان معه، ويسعدانه على أحزانه، حتى اذا هدأ وهدءا رأى شيئا أثاره، فنظرت فلم أرَ إلا شجيرات خضراء شديدة الاخضرار يمر عليها القطار فعرفت انها الغضى واذ به يقول، يخاطب صاحبيه:

خليلّي هذا ربع ليلى بذي الغضى
سقى الله ليلى والغضى وسقاكما

فقد كنتما لي مسعدين على البكا
فما لكما لاتسعدان أخاكما

أظل وحيداً لاأرى من أحبه
وهل بالحمى لي من خليل سواكما

ولـو غـاب عني واحـد مـنكما وهـت
قـوى الـصبر لأوهـى الـزمـان قـواكما

فـكـيـف أذود الهـمّ عني تجـلّـدا
اذا غـبتما عـن أرض نجـد كـلاكما

ومر القطار ولاح لنا على البعد جبلان، يلوحان على حواشى الأفق، تضيع أعاليها في ألق الأصيل وإذا بي أرى شيخاً جليلاً، قد دخل القطار لست أدري من أين جاء، ووراءه نفر تعلوهم مهابة ووقار، واذا بالشيخ يرنو إلى الجبلين، ويكلمهما، يسألهما ويناديهما كأنهما يسمعان النداء ويدركان السؤال، يقول:

أيـا جـبـلـي نجـد أبـيـنـا سُـقـيتما
متى زالــت الأظـعـان، يـاجـبـلان

أنـاديكمـا شـوقـاً، وأعـلـم أنـه
وان طـال رجـع الـقـول لاتـعـيـان

وسكت ساعة حتى غابت الشمس وظهر الليل، فعاد يقول:

أقـول وقـد مـد الـظـلام رواقـه
وألـقـى على هـام الـربـا بجـران

نـشـدتكمـا أن تـضـمـرانـي هـنـيـة
لـعـلـي أرى الـنـار الـتي تـريـان

قـفـا صـاحـبـيَّ الـيـوم أسـال سـاعـة
ولاتـرجـعـا سـمـعـي بـغـير بـيـان:

هـل الـربـع بـعـد الـظـاعـنين كـعـهـده
وهـل راجـعٌ فـيـه عـلـيَّ زمـانـي

فعلمت أنه سيد شعراء الغزل صاحب الحجازيات، أمير العشاق الشريف الرضي، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا قائم إليه أحيّيه وأبثه قديم حبي له، وإكباري إياه. واني كتبت عنه صفحات هي الشعر وان لم توزن بميزان الخليل، فأنس بي وجعل يحدثني وقد سكرت من حديثه، كأن في فيه الخمر، وفي كلامه السحر، ولحظ ذلك مني، فجعل يهزني، و يناديني فصحوت وقلت:

ـ نعـم؟
ـ قال : أما تحس نسيم الشيح من نجد؟

فنظرت فاذا أنا قد رددت إلى حاضري، فلا أشم إلا

هواء القطار (المكيف)، فسكتّ. فلوى وجهه عني يقول:

ولـقـد أقـول لـصـاحـب نـبّـهـتـه
فـوق الـرحـالـة والمـطـيّ رواقِ

مع أننا كنا في قطار (الديزل) لافي قطار الابل.

أومـا شـمـمـت بـذي الابـارق نـفـحـة
خـلـصـت إلـى كـبـد الـفتى المشتـاق

فـجـنـى نـسـيم الـشـيـح مـن نجـد لـه
حـرق الحـشـا وتحـلّـب الآمـاق

آهـا على نـفـحـات نجـد إنهـا
رسـل الهـوى وأدلـة الأشـواق

ثم أطرق، وجعل يحرك شفتيه يناجي ذكريات له بعيدا مداها، فقلت له مباسطاً:
— أين أنتم يامولانا؟ قال:

كـأنـا بـنـجـد غـداة الـوداع
نـصـادي عـيـونـاً مـن الـدمـع رمـدا

وأيسر مـانـال مـنـا الـغـلـيـل
ألا نحـس مـن المـاء بـردا

وغلبه الحنين، فتركته، فوقف إلى نافذة القطار، ينظر في سواد الليل، وأطلق نفساً طويلاً، خلتُ أضلاعه تقطعت منه، وهمس للريح بشيء، فدنوت فأصغيتُ، فاذا هو يسأل الريح ان هي لم تحمل اليه حبيبه ليشم عبقه، ان تحمل نفسَه هو إلى حبيبه، واذا هي احدى روائعه التي يقول فيها:

خذي نَفَسي ياريح من جانب الحمى
فلاقي به ليلاً نسيم ربا نجد

فان بذاك الحي إلفا عهدته
وبالرغم مني أن يطول به عهدي

ولولا تداوي القلب من ألم الجوى
بذكر تلاقينا قضيت من الوجد

ولكنه لايشفى ولو تداوى، لأن المرض يتجدد له كلما رأى متألما، أو سمع شاكياً:

واني لمجلوب ليَ الشوق كلما
تنفس شاكٍ أو تألم ذو وجدِ

ورثيت له هذا الداء، الذي يستعصي على الدواء،

وسألته ماسببه؟ فقال، ان سببه شم الشيح في نجد:

شـمـمـت بـنـجـد شـيـحة حاجرية
فـأمـطـرتها دمـعـي وأفـرشتها خـدي

قـلـت : لماذا شـمـمتها يامولانا، انما يشم مثلك الورد والفل لايشم الشيح والقيصوم؟.

قال : ذكرت بها ريا الحبيب على النوى.

قلت : وهل وجدت فيها مشابه من ريح الحبيب؟

قال : وهيهات ذا يابعد بينهما عندي.

وأقبل رجل (ديلمي) يتشبه بالسيد القرشي، يقلده في حركاته وانشاده و(يابعد بينهما) فالشيخ الشريف يصدر عن طبع، وهذا عن صناعة، وذاك نبيل وهذا يتنبل.

وليس التكحل في العين كالكحل.

ووقف يصرخ كأنه يخطب في أهل نجد:

أيـا أهـل نجـد كيـف بالغور بعدكم
بـكـاء تهـامـيّ يهيم بـنـجـد

مـلـكتم عـزيـزاً رقـه فـتـعـطـفـوا
على مـنـكـر للـذل لم يـتـعـود

اغـــدراً وفـــيــكـــم ذمـــة عـــربـــيـــة
وبـخلاً، ومنكم يستفاد ندى اليد

ثم انتقل من الصراخ إلى النحيب، وابتدره القوم يلومونه، و يأخذون عليه بكاءه و يتهمونه في حبه، فقال:

دعوني فلي ان زمت العيس وقفة
أعلّمُ فيها الصخر كيف يلينُ

وخلوا دموعي أو يقال، نعم، بكى
وزفـــرة صـــدر أو يـــقـــال حـــزيـــن

فلولا غليل الشوق أو دمعة النوى
لمـــا خـــلـــقـــت لـي أضـلـع وجـفـون

وفي الركب أنّى أنجدَ الركبُ حاجةٌ
أُجِلُّ اسَـمـهـا أن تُـقْـتـضىٰ وأصون

وعـــوّذنـــي عـــرّاف نجـد بـذكـرهـا
فـــأعـــلـــمـــنـــي ان الـــغـــرام جـــنـــون

وكانت مقطوعة من مطبوع الشعر، سما فيها فوق أفقه، وعلا فيها عن عادته فأعجبوا بها وطربوا لها ولكن رجلا غريباً قام كالخائف المذعور، وقال، اسرعوا ويحكم

واهربوا العجل. العجل.

فذعروا ــ وقالوا: وممّ الهرب؟

ــ قال : من الوباء، ان في هذه الأرض مرضا، ينبت فيها كما ينبت العشب هو مرض الحب النابت في القلب وكم من صحيح خليّ الفؤاد، نزلها مصبحا معافي فلم يمس عليه المساء حتى عراه الداء فصارت له ليلى يهتف باسمها، أو لُبْنى يهيم بحبها:

النجاءَ النجاءَ من أرض نجد
قبل أن يعلق الفؤاد بوجدِ

ان ذاك الثرى لينبت شوقا
في حشا ميّت اللبانات صلد

كم خليّ غدا اليه وأمسى
وهو يهذي بعلوة أو بهند

بحديث اذا سمعناه لم ند
ر بخمر فضحننا أم بشهد

أنفت من براقع الخز والقز
خدود قد برقعوها بورد

أمقاما بعالج والمطايا
عرض يبرين بالظعائن تخدى

لا الحمىٰ بعدكم متاحٌ ولاماءُ
اللوىٰ إذ هجرتموه بوردِ

قالوا : أنتَ يا(صردر) تدعى الشوق بلا دليل، فقال:

ماتريدون من دلائل شوقي
غير هذا الذي أجن وأبدي

ورأيت اعرابيا (لايعرف اسمه أحد) يثب إليه، وقد أغضبه أن يقول شاعر أن في نجد داء يفر منه الاصحاء. واطلق يدافع عن نجد، فقال:

فيا حبذا نجد وطيب ترابه
اذا هضبته بالعشي هواضبه

وريح صبا نجد اذا ماتنسمت
ضحى أو سرت جنح الظلام جنائبه

وأشهد لاأنساه ماعشت ساعة
وما انجاب ليل عن نهار يعاقبه

ولا زال هذا القلب مسكن لوعة
بذكراه حتى يترك الماء شاربه

ومثلت إلى جنبه بدوية، عرفت معها كيف تسرق الغيد عيون الغزلان، وكيف تميس بغصن بان، وعذرت أحمد لما ادعى ان:

حسن الحضارة مجلوب بتطريةٍ
وفي البداوة حسن غير مجلوبِ

فانعقدت لمرآها الألسنة، وتعلقت بها الأنظار، وقالت كلاما طويلا ما (حفظوا) منه إلا هذا البيت:

ألام على نجد ومن يك ذا هوى
يهيّجه بعد السلوّ مرابعه

ونسي (التهامي) مُصابهُ بولده الذي أبقى ذكره في الأدب بتلك المرثية الرائية التي كانت في الشعر مثل المعجزات وتعلق بهذه الشاعرة البدوية الحسناء فناداها فداناها وتمايل العنقان، وتقارب الرأسان، واحسست أنهما يتساقيان مابقي في كأسيهما من خمر غرام قديم — حتى ذهبت فلاموه عليها فقال:

اهتَزُّ عند تمني وصلها طربا
ورب أمنية أحلى من الظفرِ

صحيح والله إن أحلام الوصال، ألذ من الوصال

ولايعرف هذا إلاّ مَن جرَّبه:

تجني عـلـيَّ واجني مـن مـراشـفـهـا
فـفـي الجنى والجـنايات انقضى عُمري

اهـدى لـنـا طـيـفـهـا نجـداً وسـاكنها
حتى اقـتـنـصنا ظباء البـدو في الحضر

يريد أن الظبية قد صيدت في القطار !

وكان في القوم رجل ساهم واجم، تشغل ذهنه معضلة لايعرف حلها فكلما تكلم متكلم أو أنشد منشد. جذبه من كمه وسأله عنها، عن (الحمائم الورق):

أتظن الورق في الأيك تغني؟

فإذا أخبره أنها تغني، عجب من جهله، وأعلمه أنها لاتغني (أنها تضمر حزناً مثل حزني) فإذا لم يجبه دعا عليه:

لاأراك الله نجـدا بـعـدهـا
أيـهـا الحـادي بهـا ان لم تجـبـنـي

ثم يخلو إلى ذكرياته، فيناجي سوالف أيامه في الحجاز:

يــازمــان الخــيــف هــل مــن عــودة
يــســمــح الــدهــر بهــا مــن بــعــد ضنّ

أرضــيــنــا بــثــنــيّــات اللــوى
عــن (زرود) : يــالهــا صــفــقــة غبن

ســل أراك الجــذع هــل جــادت بــه
مــزنــة روّت ثــراهــا مــثــل جــفني

وأحــاديــث الــغــضــى، هــل عــلــمــت
انهــا تــمــلــك قــلــبــي قــبــل أذنــي

وأهاجته الذكرى، فصاح، والتبط به، فقال القوم قد جن، (ابن سنان الخفاجي) قد جن فقال ــ ابن الخياط ــ أنا أداويه، لأني أعرف مرضه، انه ماأطار لبه إلا صبا نجد، وإني مداويه بالتي كانت هي الداء، فمن يجرّعه الدواء؟

فقام اثنان من الشعراء. فقال لهما، ان الدواء خطر وإني أخاف أن يشفيه ويمرضكما.

قالا : ماعليك منا فهاته، فقال:

خــذا مــن صــبــا نجــد أمــانــاً لــقــلــبــه
فــقــد كــاد ريّــاهــا يــطير بــلــبــه

وإيــاكما ذاك الـــنـــسيم فـــإنـــه
اذا هــبّ كــان الــوجــد أيسر خــطــبــه

فقالا ــ وما الوجد؟ ومتى كان الوجد خطبا؟ فرثى لهما من جهلهما وقال لهما:

خــلــيــلــيَّ لــو أحــبــبتما لــعــلــمتما
محــلَّ الهــوى مــن مــغرم القــلــب صبه

قال له رجل: أنا لاأعرف ماالحب، فقل لي كيف أحب؟

قال:

تــذكــر فذو الذكرى يشوق وذو الهوى
يــتــوق، ومــن يــعلق به الحب يصبه

غــرام على يــأس الهــوى ورجــائــه
وشــوق على بــعــد المــزار وقــربــه

وفي الــركــب مطويّ الضلوع على هوى
مــتــى يــدْعــه داعــي الــغــرام يــلــبِّــه

ولما هب صبا نجد تداوى به الشاعر المصروع، ولكن صرع الشاعر العاشق ــ ابن الدمينة ــ وراح يسائل

الصبا:

الا يـاصـبـا نجـد متى هـجت من نجد
لـقـد زادني مـسـراك وجـداً على وجـدِ

ثم تراجع واستحيى وقال لنفسه يؤنبها:

أأن هـتـفـت ورقـاء في رونـق الـضحى
على غُـصـن غـضٍّ الـنبات من الرنـدِ

بـكـيـت كما يـبـكي الولـيـد ولم تكن
جـلـيداً وأبـديـت الـذي لم تـكـن تبـدي

فصاحوا به: لماذا التشوق إلى نجد وأنت في نجد، أفما يشفيك القرب، من لوعة الحب قال:

وقـــد زعـــمـــوا أن المحـــب إذا دنـــا
يملّ وأن الـبـعـد يـشفي من الوجـد

بـكـل تـداويـنـا فـلـم يُـشفَ مابنا
على ان قـرب الـدار خير مـن الـبـعـد

على ان قـــرب الـــدار لـيـس بـنـافـع
اذا كـــان مـن تـهـواه لـيـس بـذي ود

وقام الارجاني: يسأل: أجاء النسيم، أتقولون إنه جاء ركب النسيم، انى:

إذا ماسرى ركب النسيم اعترضته
لأخبار من أحببته متنسما

فيا ليل نجد ماصباحك عائدا
ولكنّ من بالغور وهناً تبسَّما

فصاح به ــ الطغرائي ــ:

أجدّك ماتنفك بالغور ناشدا
فؤادا بنجد يالقلبك من نجد

تمادى غرام ليس يجري إلى مدى
وفرط سقام لايقيم على حد

أقول لأنضاء الغرام عشية
ببصرى وانضاء المطي بنا تخذي

اقيموا صدور العيس واستخبروا الصبا
عن الحي بالجرعاء: مافعلوا بعدي

وماطاب نشر الريح الا وعندها
أخابير من نجد وعن ساكني نجد

فصاحوا به : كلنا عاشق فلم تخصّ بالذكر نفسك؟

قال:

نـظـنـون حـالي في الهوى مثـل حـالكـم
وهيهـات. اني في الهـوى أمـة وحـدي

قال ابن الخياط : أما أنا.

فـلـسـت على وجـدي بـأول عـاشـق
أصـابـت سـهـام الحـب حـبـة قـلـبـه

وكـان في الـقـطـار (اعـرابـي) لايـزال يـتـلـفـت إلـى الـوراء... يحـاول أن يخترق بنظره حجب الليل، فقالوا له: مالك وما الذي تحاول أن تراه؟ فقال:

أكـــرر طـــرفـــي نحـــو نجـــد وانـــنـــي
الـيـــه وان لم يـــدرك الـطـرف انـظـرُ

حـــنـــيـــنـــا إلـــى أرض كـــأن تـــرابهـا
اذا أمـــطـــرت، عـــود ومـــســـك وعـنـبر

قالوا له : ولكنك لا ترجع من النظرة بطائل فقد أسودّ

الليل وغابت المشاهد. فقال:

وما نظري من نحو نجد بنافع
أجل لاولكني ـ على ذاك ـ أنظر

وطال السفر، ونام في المقاعد أكثر الشعراء، وبقى واحد قاعدا لا ينام فدنوت فقلت له: مالك لاتهجع كما هجعوا.

فأخبرني أنه يغار على حبيبته، يخاف اذا نام أن يزوره طيفها، فيراه من معه من أهل نجد:

واشفق من طيف الخيال اذا سرى
مخافة أن يدري به ساكنو نجد

قلت: ومابلغ من حبك اياها؟

فزفر زفرة زلزلت قلبه: واعرض عني كأنه نسيني وجعل يخاطبها يقول:

ومن فرط اشفاقي عليك يسرني
سلوّك عني خوف أن تجدي وجدي

وأرضى بأن تفديك نفسي من الردى
ولكنني أخشى بكاءك من بعدي

قلت له: هذا عظيم، هذا الذي أراده الشعراء، فأخطأه أكثرهم. فحاموا ولم يلجوا ومشوا ولم يصلوا. قال:

مــذاهــب شتى للــمــحــبين في الهــوى
ولي مــذهــب فيهــم أقــول بــه وحــدي

وكان الشريف متيقظا يسمع، فضحك.

ـ فقلت : وما يضحك مولانا؟

ـ قال : كل يدعى أن له مذهبا في الهوى وأنه إمام في شرعة الحب.

ومــاشــرب الــعــشــاق الا بــقــيــتــي
ومــا وردوا في الحــب الاّ على وردي

وشغلنا عما كنا فيه (اعرابي) غيره، رأيناه من وراء الزجاج، يعدو جملا مهريا يخب به في الرمل، يحاول أن يسابق القطار. فعلمنا أنه ضالّ يسألنا عن الطريق، وأصغينا فسمعناه ينادي:

أصــاح،ألاهــل مــن ســبــيــل إلــى نجد
وريــح الخزامــى غضــة من ثرى جعد

وهــل للــيــالــيــنــا بذي الرمث رجعة
فنشفي جوى الاحزان من لاعج الوجد

فتأملته فعرفته واذا به (الطرماح) فحييّته وقلت:

ـ أما الطريق إلى نجد فهذه ياصديقي نجد، هذي روابيها وهذا نسيمها، وأما الليالي الماضيات فهيهات أن تجد السبيل إلى أن تعود إليها، أو تعود بها اليك، لايرجع الماضي ولايكشف المستقبل فاقنع بما أنت فيه فإن:

ما مضى فات والمؤمل غيب
ولك الساعة التي أنت فيها

قال: وكأنه يقول لنفسه: لا والله مافات ولكن دوّن في كتاب لايدع صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها. فنسأل الله العفو عما مضى، والسترّ فيما هو آت.

ولوى عنق بعيره وولى وعيناه تنديان من الدمع.

وسمعت من يذكر ابن نباته، فقلت أي الثلاثة هو؟ الشاعر أم الخطيب. أم المتأخر عنهما في زمانه وفي لسانه؟.

قالوا: هذا ابن نباته الكبير. كان شاعراً ولكن قربهُ من صاحبكم المتنبي كسف نوره كما كسف أنوار جماعة من الفحول.

فنظرت فاذا رجل عليه هيبة، ينظر بعيدا ثم تبرق عيناه و يفترّ ثغره عن ابتسامة و يقول: لقد أقبلوا.

قالوا : من هم. قال: وفد الشعراء،

حــبــذا الــقــادمــون مــن طــرف الحــ
ــزن ونجــد منهــم على مــيــعــاد..

تــتــلــقــاهــم بــنشر الخــزامــى
نــفــحــات تــشــفــى عــلــيــل الــفــؤاد

وامتلأ المكان بالوافدين. واختلطت الأصوات وسمعت اسم ــ المجنون ــ

وكــل الــنــاس مجــنــون ولــكــن
على قــدر الهــوى اخــتــلــف الجــنــون

فكان ابن الملوح سيد المجانين، لأنه كان سيد العشاق ثم ميزت صوته يقول:

الا لــيــت شــعــري من عوارضَتيْ قُبا
لــطــول الــتــنــائى هل تغيرتا بعدي

وهــل جــارتــانــا بــالــبــتــيــل إلى الحــمى
على عــهــدنــا أم لم تــدومــا على العــهــد

وعــن عُــلْــويــات للــريــاح اذا جــرت
بــريــح الخــزامــى، هل تهب إلى نجد

وعـن اقـحـوان الـرمـل مـاهـو فـاعـل
اذا هـو أمـسـى لـيـلـة بـثـرى جـعـد

فقالوا : مجنون يخلط بين نجد وقبا وماأبعد قبا من نجد.
فزجرهم عنه ـ التهامي ـ وقال له:

اسـفـح بـنـجـد مـاء عـيـنـك انهـا
لـلـعـامـريـة كـل أرض دارُ

وعـاد التهـامي يقول لنفسه يذكر موقف وداع صاحباته وضيا ورشفا...

لم ادر اذ ودعـنـنـي أمـقـبّـل
لحـلاوة في الـريـق أم مـشـتـارُ

ألـبـسـني سـربـال ضـم مـالـه
الا رؤوس نـهـودهـا أزرار

قالوا: نسأل الله السلامة.. من هذه الأزرار
وعـزى نـفـسـه الـطـغـرائى ان هذا يصف الوداع الذى مـضـى وهـو يأمل اللقاء الذي يأتي حين تستقر به الاقامة في نجد.

يـاحـبـذا نجـد واعـراق الـثـرى
لـدن وأنـفـاس الـربـيـع رفـاقُ

فهواؤه خصر النسيم وتربه
حالي الاديم وماؤه رقراق

ولساكنيه ان استقر بنا النوى
تشفي النفوس وتمسك الارماق

واختلطت الأصوات ولم أعد أتبين الا أبياتا من مقطوعات، كلها في نجد. هذا أبو تمام أستاذ الشعراء جميعا — لااستثني المتنبي — يقول:

وانجدتمُ من بعد اتهام داركم
فيا دمع أنجدني على ساكني نجد

وهذا شيخ الشعراء الاسلاميين جرير يقول:

أحب ثرى نجد وفي الغور حاجة
فغار الهوى ياعبد قيس وانجدا

وهذا يقول:

سقى الله نجدا والسلام على نجد
وياحبذا نجد على القرب والبعد

وهذا هو الطرمّاح يهتف بنجد وينسى انه في نجد:

أصاح ألا هل من سبيل إلى نجد
وريح الخزامي غضة من ثرى جعد

وهل لليالينا بذي الرمث مرجع
فيشفي جوى الأحزان من لاعج الوجد

وكان في القوم رجل جاء من بعيد بعيد من وراء البحر العريض ليقوم في مهرجان نجد فيلقى فيه ـ كلمة الاندلس ـ قال ابن خفاجة:

يالـيل وجد ينجد
أما لطيفك مسرى

وما لدمعي طليقا
وانجم الجو اسرى

وقد طمى بحر ليل
لم يعقب المد جزرا

لايعبر الطرف فيه
غير المجرة جسرا

وتغنى بها بنفحة من ألحان زرياب فأشجى من حضر... وذكر كلٌ من أيامه ماغبر وقام (سبط ابن التعاويذي). يبكي و يسأل رفيقيه أن يستعيرا عينين يبكيان بها.

ونسى قول عبقري الغزل اذ يقول (أرأيت عينا للدموع تعار).

قال: يارفيقي هل لذاهب أيام تقضت حميدة من مرد.

انجـدانـي بـوقـفـة في مـغـانـي
الحـيّ أن جـزتما بـأعـلام نجـدِ

وابـكـيـاهـا بمـقـلـتـي واسألاهـا
مـن سـقـاهـا مـاء المـدامـع بـعـدي

فقلت له: ويحك، تسرق شعر مولانا الشريف، هذا البيت شريفي فأعده لصاحبه ولم يرد علي، ولم يرد صاحباه عليه، وكان القطار قد تباطأ في سفره ودنا من غايته، فهما بالنزول فوثب الصمة بن عبد الله القشيري يمسك بهما و يقول لهما: قفا اتنزلان لا تودعان نجداً، ان نجدا يستحق منكما أكثر من الوداع.

قـفـا ودعـا نجـدا ومـن حـل بـالحمى
وقـلَّ لـنـجـد عـنـدنـا أن يـودَّعـا

بـنفـسي تـلك الأرض مـاأطيـب الربـا
ومـا أحـسـن المـصـطـاف والمـتـربعـا

وأذكر أيام الحمى ثم انثني
على كبدي من خشية أن تصدّعا

وسمعنا من بعيد صوتا حزينا يتغني (أغنية الوداع).

تزوّدْ من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرارِ

فقال أحد الحاضرين منزل العامرية بشرقي نجد وما بلغناها، فصاح المجنون:

لا تقل دارها بشرقي نجد
كل نجد للعامرية دار

منشـورات

مؤسسة
دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام
DAR AL ASSALA FOR CULTURE PUBLISHING AND INFORMATION

الرياض ص.ب ٤٢٢٤٨

١ ـ من تاريخنا ـ الطبعة الثالثة ـ محمد سعيد العامودي.
٢ ـ الشعر في البلاد السعودية في الغابر والحاضر ـ الطبعة الأولى ـ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري .
٣ ـ الدين ضرورة حياة الإنسان ـ الطبعة الأولى ـ عبد الكريم الخطيب .
٤ ـ منهج الإسلام في تربية الجندي المسلم ـ الطبعة الأولى ـ دكتور محمد إبراهيم نصر .
٥ ـ الصنوبري . شاعر الطبيعة في العصر العباسي ـ الطبعة الأولى ـ صالح عبد الله التويجري.
٦ ـ الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية ١٢٠٠هـ ـ ١٣٥١هـ، الطبعة الأولى ـ عبد الله محمد أبو داهش.

٧ ـ شـعراء ينبع وبنو ضمره ـ الطبعة الأولى ـ عبد الكريم محمود الخطيب.

٨ ـ موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء المعري ـ الطبعة الأولى ـ دكتور زهدي صبري الخواجا.

٩ ـ حلم في نجد ـ الطبعة الأولى ـ علي الطنطاوي.

مطابع الفرزدق التجارية
تلفون ٤٧٨٨٥١٠ الملز